من تراب الطريق (٤٦٣)

الفراسة(*) علم أم فن أم خرافة؟!

تجرى كلمة الفراسة بفتح الفاء ، وصحتها بكسر الفاء ، على كثير من الألسنة ، فيوصف الأريب الذكى بأنه صاحب فراسة ، وفى المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية أن «الفراسة «بكسر الفاء ، هى إدراك باطن الأمر بالظن الصائب . ويقال إن فلان «فارس» بالأمر. أى صار ذا رأى وعلم بالأمور . فهو فارس بالأمر: أى عالم بصير.

وتفرَّس تقال بمعنى التظاهر بالفروسية ، أى الادعاء بها وهو ليس بفارس .وبالنسبة للشىء : نَظَر وتثبَّت ويقال : تَفَرَّسَ فيه الخير : أى رأى فيه مخايل الخير . ويقال : «الأفرس» أى : أفرس بالأمور : أى : أبْصَرَ وعَرَف . ويطلق لفظ الفارس أيضًا على «الحاذق» فى ممارسة الأشياء . و«الفراسة» بكسر الفاء : المهارة فى تعرف بواطن الأمور من ظواهرها . وفى الحديث : «**اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله** » . والرأى المبنى على التَفـرُّس ، يقال : فِرَاستى فى فلان الصلاح .

والفراسة عند العرب القدماء ، علم من العلوم الطبيعية تُعرف به أخلاق الناس الباطنة من النظر إلى أحوالهم الظاهرة كالألوان والأشكال والأعضاء ، او هى الاستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن .. وفى قاموس المورد أن كلمة « Physiognomy » تعنى بالإنجليزية : «علم الفراسة» .. وتشير إلى ملامح الوجه أو أساريره باعتبارها دليلا على المزاج والخلق ، بمعنى أن

(*) المال ٢٨/٦/٢٠١٠ .

للمظهر الخارجى صفة باطنية متجلية خارجيا وتكشف عن هذا الباطن . وفى قاموس أكسفورد أن الكلمة تشير فى الإنجليزية إلى قسمات الوجه أو ملامحه كدليل على الشخصية . ونفهم من المعاجم العربية والإنجليزية أن «الفراسة» قديمة ومتداولة في الشرق والغرب ، ويقال إن هوميروس كتب شيئا منها فى علم الكف ، ولكنها لم تدون وتعتبر علما مستقلا لدى الإغريق قبل ما كتبه أرسطو عنها فى القرن الرابع قبل الميلاد ، فذكر فى الإنسان علامات الملامح والألوان وأشكال الشعر والأعضاء والقامة والصوت ، استدل منها على صفاته من ذكاء أو غباوة أو حذق أو بلادة .

وألف الراحل جورجى زيدان ، مؤسس دار الهلال ، وصاحب المؤلفات الكثيرة المتنوعة فى العربية ـ ألف كتابا عن الفراسة ، ذكر فيه أن العرب كانوا فى الجاهلية يعتقدون أشياء تعد من قبيل الفراسة «كالقيافة «التى تستدل ببشرات الناس وجلودهم وهيئات أعضائهم وأقدامهم ـ على أنسابهم ، و«الريافة» وهى معرفة حال الماء فى باطن الأرض بشم رائحة ترابها ، و«العيافة » وهى تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر والاستدلال منها على شكل ووزن وحال صاحبها وما قد يحمله ، و«الاختلاج» وهو الاستدلال على ما سيقع للإنسان من اختلاج أعضائه .

وتعددت الكتابات فى الفراسة بعد الإسلام ، سواء ضمن كتب الطب والحكمة كالرازى وابن سينا وابن رشد وابن العربى ، أم فى كتب مستقلة كالسياسة فى علم الفراسة لشمس الدين محمد بن أبى طالب الأنصارى المتوفى ٧٣٧ هـ ، وطبع فى مصر سنة ١٨٨٢م ، أو مخطوطة «البهجة الأنسية فى الفراسة الإنسانية» لزين العابدين محمد العمرى المرصفى ، و «مختصر علم

الفراسة لأجل السياسة» ، ورسالة «فى الفراسة والرمل» ، وأخرى فى «علم الفراسة لأجل السياسة» . فضلا عن إشارات فى العقد الفريد لابن عبد ربه وحياة الحيوان للجاحظ وكشف الظنون لحاجى خليفة .

وانتشرت الفراسة فى العصور المظلمة ، ودخلت فيها خطوط الكف والجبين للاستدلال على المستقبل ، واختلطت بالنجامة والسحر ، فصارت من الخرافات . ثم عادت الفراسة فلبست ثوبا جديدًا مع فجر التمدن الحديث ، وظهر فى عام ١٧٧٨ كتاب للعالم الباحث الألمانى الشهير جون كسبار لافاتر، وبنى بحوثه على الفيسيولوجيا والتشريح ونواميس الأخلاق ، ولم يكد يظهر حتى ترجم إلى كثير من لغات العالم ، ومع ذلك فإنه لا يخلو من كثير من المغالطات والأوهام ، استدركها بعده باحثون منهم صموئيل ولس فى كتابه المنشور بنيويورك سنة ١٨٨٦ فى نحو ٨٠٠ صفحة وألف رسم .

وقد قرأت كتاب جورجى زيدان الذى قسمه إلى سبعة فصول ، ليبحث بعد المقدمات : هل الفراسة علم صحيح ، وهل تصدق دائما، أم أنها قريحة خاصة ، وما حكم ووزن فراسة الأعضاء بأنواعها ، وفراسة الأيدى والأقدام ، وفراسة الخطوط والأخلاق ، ثم فراسة المشى والإشارات والأزياء ، وهل توجد فراسة للأمم تصنف الشعوب طبقا لاستدلالات مقبولة ، وما هى خلاصة أهم علوم الفراسة ، وهو علم الفرينولوجيا ، أى : فراسة الرأس ، وهل صحيح أنه توجد فى أشكال الرءوس وصفاتها ما يدل على أخلاق الناس وقواهم ؟ وما هى فراسة المهن والصناعات ، وما يمكن الاستدلال به فى أحوال رجال السياسة والمصورين والشعراء والموسيقيين والفلاسفة ورجال الدين والمخترعين والمكتشفين والمصارعين والجراحين والخطباء والمحامين .

وعلى عراضة الجهود التى بذلت فى دراسة الفراسة والتعريف بها ، فى كتب القدماء والمحدثين ، ومنهم كتاب جورجى زيدان : «علم الفراسة الحديث» ، وكتاب الدكتور إحسان حقى : «علم الفراسة» (أسرار الخلقة وإبداعها) إلاّ أن النظريات الحديثة جعلت تدلى بكثير من التحفظات على ما شاع بشأن الفراسة وترى أن السمة المحددة للشخصية ، لا تنحصر فى منطقة واحدة بعينها فى الدماغ مثلا . فالأجزاء المختلفة من الدماغ لها وظائف مختلفة ، لكن الأجزاء تتفاعل بطريقة أكثر تعقيدًا مما أدركه ممارسو فراسة الدماغ . ومع ذلك فإن هذه الاعتراضات تقر بأن فراسة الدماغ هى التى مهدت الطريق للدراسة العلمية للشخصية ، وبالتالى إلى علم النفس الحديث .

ظنى أن الذى لا يقع عليه خلاف ، أن الفراسة قريحة خاصة ، أو هى ملكة طبيعية يمتاز بها أناس دون آخرين ، وهناك من شهدت لهم الممارسة بفراسة غير منكورة ، مع أنهم ليسوا أصحاب علم ، وهناك أصحاب علم لا ملكة ولا فراسة لديهم ، لأن الفراسة فى النهاية ملكة وفن ، وهى حصاد ملاحظة وذكاء وخاطر وبديهة ، وهى ملكات تتفاوت من شخص لآخر ، وشاع أن محمد على باشا وعلى بك الكبير والأمير بشير ـ كانوا أصحاب فراسة بلا علم ، وهناك من أنفقوا حيواتهم فى دراسة علم الفراسة ، وأمعنوا فى فروعها ما بين فراسة الرأس وفراسة الوجه وفراسة الكف وفراسة المشى وفراسة الخط وغيرها من فروع الفراسة ، ومع ذلك لم يُعرف عنهم أو يُشهد لهم بأنهم كانوا أصحاب فراسة فى التعرف على صفات الناس والاستدلال من ظواهرهم على بواطنهم .

نعم . لا تصدق الفراسة دائما ، ولكن الذى لا مراء فيه أن هناك أصحاب فراسة مشهودة وغير منكورة . ولعل الأصوب أن الفراسة علم لا تتأتى مزاولته إلاّ بملكة الفن ، وهو براعة الاستدلال من واقع الملاحظة المتأملة التى لا تقف عند مظهر أو دليل واحد ، وإنما توفق بين الأمارات المتعددة لتستخلص الاستنتاج الصحيح الصائب . وفى القرآن المجيد : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحجر] .. والمتوسم هو من يستطيع التوسم والتخيل والتفرس ، وورد فى القرآن فى التعريف بالمؤمنين : ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ [الفتح: ٢٩].

وفى الحديث : «اتقوا فراسة المؤمن»..وكان الإمام على بن أبى طالب يقول : «ما أضمر أحد شيئا إلا ظهر فى فلتات لسانه وصفحات وجهه» .. ومن الحكم المأثورة : «عين المرء عنوان قلبه » .

*****